العرب
السبت 2021/10/02
السنة 44 العدد 12197

# شعوب يحكمها الأموات في دول هي متاحف شمع

فاروق يوسف
كاتب عراقي

هل سيختفي لبنان ويبقى نبيه بري؟ الرجل أطول عمرا في السياسة من البلد الذي تغيرت صورته فانتقل من كونه سويسرا الشرق المغمور بأشعة شمس الحرية إلى ما يشبه الجحر الذي تخفي فيه إيران فئرانها.

لبنان الأجيال العربية الهاربة إليه بحثا عن حياة مختلفة ذهب إلى غير رجعة واختفت تلك الأجيال فيما ظل بري صامدا مثل هيكل تمثال نخره النمل ولم يسقط بعد لأن اللبنانيين المبتلين بالأزمات لا يريدون أن يضيفوا أزمة جديدة إلى أزماتهم بسقوطه. بقاؤه أفضل من الاختلاف على بديل له. تجاربهم في ذلك المجال أكثر من سيئة.

**العراق اختفى فيما يقف صدام حسين جاهزا للنظر في أيّ لحظة وتشظت ليبيا والقذافي لا يزال ملكا لأفريقيا أما سوريا التي صارت أشبه بقطع البازلت فلا يزال حافظ الأسد يحكمها إلى الأبد**

نبيه بري هو نموذج مستعار من متحف الشمع الذي انتهى إليه مفهوم السياسة في العالم العربي. فلو قارنا تجاوزا للمنطق ما بين الحياة السياسية في العالم العربي وبينها في العالم نكتشف بيسر أن ستة رؤساء أميركيين يختفون فيما الزعيم العربي باق في مكانه تحت الشمس. زعماء أحزاب تاريخيون كان لهم أثر في المصير البشري ذهبوا إلى بيوتهم فيما حسن نصرالله لا يزال يقاوم من موقع خفي. ديغول رجل التاريخ استقال في لحظة حرجة بسبب شعوره بأن حاجات الشعب الفرنسي قد تجاوزته ولم يعد الزعيم الذي قاد فصائل التحرير في الحرب العالمية الثانية مناسبا لمرحلة ما بعد ثورة الشباب عام 1968.

القائد الحقيقي ليس أعمى. لا تعميه الأضواء عن رؤية الحقيقة.

أما في العالم العربي فلا يفتح القائد الملهم عينيه إلا على المؤامرات والدسائس وخزائن الأموال والذهب. يد تنهب ويد تقتل. كل التماثيل التي تم إسقاطها لم يحدث سقوطها دويا ينسجم مع ما شكله حضور أصحابها من ثقل على العين والعقل والقلب.

زعماء كانوا يعتقدون أنهم خالدون. وهي واحدة من أكثر الأفكار سخفا لا أدري كيف يرتضيها إنسان لنفسه. ولكن صدام حسين ومعمر القذافي وحافظ الأسد لا تزال كميات من صورهم التي طبعت في حياتهم تملأ المخازن. عن طريق تلك الصور يبقى الزعماء خالدين. ذلك جنون أصيبت به الشعوب المنكوبة بكل أنواع القمع. فالوجه نفسه الذي تراه في كل أوقات اليوم وفي كل الأمكنة سيكون عليك أن تراه في الأحلام. ذلك لأن خارطة مصيرك قد وضعت تحت مخدته.

الشعوب هي الأخرى مشكلة.

ولكن من يجرؤ على هجاء الشعوب؟

إذا كان هجاء الزعيم المستبد خيانة للوطن عقوبتها الإعدام فما هي عقوبة هجاء الشعب؟ في الوقت نفسه فإن الشعب الذي يُقدس زعيمه هو في معيار الحقيقة لا قيمة له من وجهة نظر ذلك الزعيم. القطيع الذي يخاطبه بـ"يا شعبي العظيم" يمكن استعماله حطبا لنار حرب عبثية. كانت هزيمة النظام العراقي في حرب تحرير الكويت عام 1991 تحمل عنوان "أم المعارك". وكان الشعب يومها يفكر في أن هناك مَن غدر بالرئيس الضرورة.

ولن أكون مبالغا إذا ما قلت إن العراق اختفى فيما يقف صدام حسين جاهزا للنظر في أيّ لحظة. تشظت ليبيا والقذافي لا يزال ملكا لأفريقيا، أما سوريا التي صارت أشبه بقطع البازلت فلا يزال حافظ الأسد يحكمها إلى الأبد. سيُقال دائما إن تلك دول محكومة من قبل الأموات. لا يكلف نبيه بري نفسه التفكير في مَن سيكون رئيسا لمجلس النواب اللبناني في المرحلة المقبلة. سيكون نبيه بري طبعا. الصنم يرأف بشعبه من الاختلاف ويبعده عن الشقاق وإلا فإن الحرب الأهلية خلف الباب.

ولكن ما مناسبة ذلك الحديث الذي من غير طعم كما يقول اللبنانيون؟

الانتخابات العراقية التي ستجري بعد أيام لا تستبعد الشخصيات المقدسة التي جلبها المحتل الأميركي ووضعها على كراسي الحكم منذ حوالي عشرين سنة بل تتعامل معهم باعتبارهم أيقونات الحياة السياسية التي تطل من علو على المشهد لتشرف عليه وتباركه وتهبه شيئا من حكمتها. فالمرشحون للذهاب إلى مجلس النواب هم صبيان وخدم أولئك الزعماء. وإذا ما عرفنا أن أكبر أولئك الزعماء وأكثرهم أهمية كان يقف مرتجفا في حضرة قاسم سليماني يمكننا الحكم على تفاهة وصغر ما يمكن أن تنتج عليه العملية الانتخابية. زعماء صغار يتبعون زعماء هم الآخرون صغار أيضا.

لا يزال العراق حبيس مفهوم الزعيم الخالد الذي اختفى من غير أن يترك حيزا لولادة زعيم خالد بديل. ذلك الفراغ الذي يشكل مصدر فزع بالنسبة إلى الزعماء الذين وعدوا أنفسهم بالخلود.

# مصطفى الكاظمي.. رجل الجميع الصالح لكلّ الدول

علي الصراف
كاتب عراقي

تُجانب سهام الأحزاب الطائفية والكردية في العراق نقد الرئيس برهم صالح ورئيس الوزراء مصطفى الكاظمي، لأن الأول ذو منصب شرفي ورمزي، ولأن الثاني سعى لإرضاء الجميع، فإن لم يحصل على شكرهم، فها هو على الأقل ينجو من سهامهم.

صالح والكاظمي لا تدور حولهما شبهات فساد بالمعنى الشخصي. وهذه تكاد تكون ميزة استثنائية في عراق الفساد الجديد منذ نشأته في العام 2003 حتى الآن. فكل الذين تولوا مراتب المسؤولية الأولى إما أصبحوا أساطين ثراء بعد جوع، أو أنهم وفروا لأحزابهم ولوليهم الفقيه من أموال العراق ما منحهم القوة لكي يفرضوا الهيمنة على الشارع والدولة، العميقة منها والتي في السطح. ولقد نهبوا ما يقدر بنحو 750 مليار دولار قيل إنها "اختفت" من السجلات الحكومية، 500 مليار منها في عهد نوري المالكي وحده.

الكاظمي لبس جميع الأثواب، حتى كاد يُنظر إليه على أنه طماطم يصلح لجميع الطبخات الطائفية والميليشياوية والولائية والمخابراتية والوطنية والعروبية وغيرها. وحتى لكأنه "قاسم مشترك" للجميع، وحتى لكأن بقاءه في المنصب ثمرة طبيعية يمكنها أن تمثل الواقع الراهن، كيفما يمكنه أن يكون. وهو مستعد لتقديم الخدمات لكل غالب من موقعه الملتبس بالذات.

والالتباس مناسب تماما للعقلية الباطنية التقوية التي تقول شيئا وتفعل آخر. وهو ما يجعله رجل خدمات لتقديم كل الصور. حتى نوري المالكي يمكن أن يجد فيه بديلا عمليا إذا ما تقدم حزبه في صفوف الفائزين في الانتخابات المزمع إجراؤها في العاشر من الشهر المقبل. فهو يستطيع أن يجعل السجلات تغفل عن 500 مليار أخرى (يعني لا مليار ولا مليارين) بينما يظل الكاظمي في منصبه كممثل للنزاهة. ويستطيع أن يجعل من ولائه للولي الفقيه احتلالا تاما لكل جزء من العراق، بينما يتكفل الكاظمي بتقديم الصورة العروبية التي تفتح الطرق والأبواب على الاستثمارات العربية. والقصة كلها إنما تكمن هنا.

فالعراق الذي جعله الولائيون مفلسا، كان هو السبب الذي برر الاستعانة بوجه يمتلك القدرة على تمثيل كل الوجوه.

وبما أن العراق يُصدر نحو 100 مليار دولار من النفط سنويا، وبما أن إيران تريد أن تنهب عن طريق ميليشياتها وعصاباتها نصف هذا المبلغ سنويا على الأقل، فإن البديل الوحيد المناسب هو الكاظمي الذي يمكنه أن يحقق أجندة اختفاء المال من دون نوري المالكي، كما يمكنه بفضل عروبيته أن يستجلب استثمارات عربية تغني الدولة العراقية عن أن تستثمر بنفسها، كما يستطيع أن يستميل الولايات المتحدة فلا تقف حجر عثرة أمام حاجته للمزيد من القروض التي تدخل في صناديق النهب المنظم، وهو مناهض لدولة العصابات، رغم أنه رئيس وزرائها، بما يكفي لإقناع الشركات الأجنبية بأن البلاد تعيش في أمان تام، كما أنه يستطيع أن يلقي القبض على المجرمين ثم يطلق سراحهم، وهكذا.

ولولا العيب، لكان على كل الأحزاب الطائفية والولائية وكل العصابات وكل القتلة وكل العملاء وكل العروبيين وكل المستثمرين وكل المقهورين أن يرفعوا صورة مصطفى الكاظمي ليكون زعيمهم وممثلهم ووكيل أعمالهم.

أولا، لأنه وطني من ناحية وولائي من ناحية أخرى. وثانيا، لأنه نزيه، بالمعنى الشخصي، ولكن يسمح بالثقوب الإجرائية التي تمر منها المنهوبات. وثالثا، لأنه مسكين، بلا حزب يدعمه، ولا ميليشيا تحميه مما يجعله بحاجة إلى الجميع. ورابعا، لأنه بلا برنامج سياسي خاص به، ما يجعله مؤهلا لكي يتبنى أي برنامج. وخامسا، لأنه لا يملك من دنياه إلا راتبه.

فبينما يتقاضى الرئيس الأميركي زعيم أكبر اقتصاد وأقوى دولة في العالم راتبا سنويا لا يتجاوز 400 ألف دولار (زائد بدلات نفقات وسفر تبلغ 169 ألف دولار)، فإن رئيس الوزراء العراقي، زعيم واحدة من أكثر دول العالم فسادا، ومن بين أكثرها إفلاسا وضعفا، يتقاضى 780 ألف دولار سنويا.

أما الرئيس العراقي، ذو الواجبات الرمزية، فإنه يتقاضى راتبا رمزيا يبلغ 876 ألف دولار سنويا، حتى ليتمنى الرئيس جو بايدن أن يكون رئيسا للعراق بدلا من الهَم الذي يعيش فيه.

مصطفى الكاظمي مؤهل بتلونه وقدراته على التجاوب مع كل الأجندات على أن يمثل الجميع. ولكي لا يبدو الأمر ظلما، فإنه مؤهل، مع هذا الجمع كله، لأن يمثل مصالح العراقيين أيضا.

إنه رجل الجميع الذي لم يظهر مثله في الكون.

أينما وضعته فإنه يعمل بنفس الولاء والإخلاص. وهو قادر أيضا على تدبير التسويات وتحقيق الترضيات بين الخاسرين والرابحين. ولا أحد سيخرج من لقائه إلا راضيا عنه بمن فيهم القاتل والقتيل. أفهل رأيته يسجن قاتلا ولم يطلق سراحه؟ أفهل رأيته لا يوفي التسويات حقها مع أهل القتيل؟

ولا عجب من بعد ذلك كله أن أحدا لا ينتقده، لأنه ما من أحد إلا ويجد فيه شيئا مما يرغب به.

لقد عرف العراق من القادة الكثير، بألوان وغايات شتى، ولكنه لم يعرف نموذجا مماثلا لمصطفى الكاظمي. ولو أنك رشحته لتولي منصب الأمين العام للأمم المتحدة فإنه سيكون خير ممثل لكل دول العالم ولكل المافيات ولكل الشركات، وسيكافح أزمة المناخ، على سبيل المثال، بنفس الإخلاص الذي يخدم به الذين يلوثون المناخ. ويبقى الكل راضيا عنه. وسوف يفوز بالولاية تلو الأخرى حتى ليمكن أن يُطلب منه تولي المنصب ثلاث مرات بدلا من مرتين. وربما رابعة أيضا.

شيء واحد يبقى ظاهرا على طول الخط لا يتبدل، هو أن الخراب الذي صار رئيسا للوزراء عليه، سيظل هو نفسه الخراب.

ما الذي تغير في العراق منذ أن تولاه الكاظمي؟

تأمّل في الصورة جيدا وسترى أن الأزمة باتت أسوأ مما كانت. وهو نجح في قتل الاحتجاجات من دون أن يحد من سلطة الجريمة. والفساد الذي قال إنه سيحاربه صار هو الذي يسعى للفوز في الانتخابات المقبلة. والعراق الذي نام تابعا لإيران سيصحو تابعا، والـ500 مليار التي اختفت في عهد نوري المالكي ستظل تختفي.

عاش مع حسن روحاني فأرضاه.

وعاش مع إبراهيم رئيسي فأرضاه، كما أرضى السعودية ولم يزعل عليه بشار الأسد. وأخرج العراق من دائرة العقوبات ضد إيران (ليصنع ثقبا أسود فيها) من دون أن يخسر رضا دونالد ترامب ولا خلفه جو بايدن.

إنه رجل الجميع الذي يستطيع أن يُرضي كل زبائنه.

**الكاظمي رجل الجميع الذي لم يظهر مثله في الكون وهو قادر على تدبير التسويات وتحقيق الترضيات بين الخاسرين والرابحين ولا أحد سيخرج من لقائه إلا راضيا عنه بمن فيهم القاتل والقتيل**